من الأدب الرمزي

هكذا تكلم بردى (*) !

للأستاذ علي الطنطاوي

تفتحت أبواب السماء بغيث منهمر استمرّ ليلة من (تلك) الليالي طولها عشرة آلاف سنة ، فأغرق البحر وابتلع البرّ ، ومدّ أصابعه من خلال التراب وأدخلها من شقوق الأرض حتى بلغ (بردى) وهو (جنين) في بطن أمه الأرض ، تطيف به أحشاء ليّنة من جَلْمَد الصخر ، تحنو عليه وتغذيه ، فتمره بالماء حتى ضاق به مكانه ، وامتد البلل إلى عظامه فخرج ...

وكانت الشمس قد طلعت على الأرض بعد (تلك) الليلة تمنحها الدفء وتغمرها بالنور ، و (تحدّد) فيها مملكة البر والبحر بعد أن كانت بحراً كلها ؛ فوقف (الوليد) ينظر مشدوهاً فيرى سهلاً أفيح جميلاً تحيط به جبال يَتِهْنَ شباباً ويَمِسْنَ جمالاً ، ولكنه عارٍ أجرد ، فآلمه عريه وتجرّده ، وود لو سعى في أرجائه يزرع فيه الحياة ويضع في تلك السفوح (بذور) المدن والقرى . ولكنه كان ضعيفاً (فلم يستطع أن يمشي) ، وتصرم النهار وهو جاثم مكانه لا هو قادر على الرجوع إلى بطن أمه ، ولا هو قادر على السير ، وأوحشه سكون الليل وظلامه ، ولم يعطف عليه الجبل ولا سامره السهل ، فلبث وحيداً حتى جاءت فتاة من بنات (الدّنب) كانت قد سمعت به فأحبت أن تراه ، فلما أبصرته عشقته وحنت عليه ، وأضجعته على ركبتيها (تهمس) في أذنيه أحاديث المدن البعيدة الحلوة والأودية المسحورة . . . حتى نام !

* * *

ومرت أيام نما فيها الوليدّ ، فغدا (صبيا) يمشي في السهل ، ثم شب فصار (فتى) قويًّا ، (يعدو) نحو الوادي عدواً ...

راع ظهوره أهل تلك الديار فأعرضوا عنه باديَ الرأي ، ثم مالوا إليه فأحبوه ، واتخذوا مولده عيداً ، فنشر له السهل أعلامه الخضر ، وجمع له باقات الزهر ، وفرش له الجبل سفوحه ، وزيّنها بالورد ، وملكوه عليهم ...

وكان (بردى) الشابّ ، طموحاً عالي الهمة ، فلم يقنع بملك ذلك السهل ، سهل الزبداني ، ولم يكفه أن خضعت له جبال مضايا وبلودان ، وأبى إلا أن يخرج فاتحاً لا يقف حتى يملك الوادي كله ، فحشد عسكره ، ودخل الوادي بطبوله وراياته يثب على الصخر وثباً ، ينشد أنشودته (الهادرة) ، ولم يكن في الوادي إلا أميرات صغيرات ، ملكهن صخرة يخرجن من تحتها ، وساقية يجرين فيها ، فلم يلبثن أن بايعنه وخضعن له ، واندمجن في جيشه ، وسمعت الأشجار بمسيره فقامت على طريقه صفين تحييه و (تصفق) له

حتى إذا اقترب من (الفيجة) جاءه رائده فقال له : قف ، فإن ههنا ملكة جبارة عرشها صخرة هائلة ، وجيوشها تملأ الوادي وتمتد إلى أبواب المدينة الأبدية الأزلية التي كانت من قبل ، وستبقى بعد المدائن كلها : دمشق !

(فقهقه) بردى ضاحكا من حماقة رائده . أي مدينة وجدت من قبله؟ وأي شيء يعرف القدم والبقاء إلا الله القديم بلا ابتداء، الباقي بلا انتهاء ! ثم زمجر وأقسم لئن وجد تلك المدينة قائمة من قبله ليدكنها دكا . وإن وجدها تنتظره ليجعلنها بإذن الله سيدة مدن الأرض وأمها ووارثها . أما تلك الملكة فليحطمنّ عرشها ، ويبددن جندها ...

* * *

لأن جميع ذلك أمور وضعية ، والأمور الوضعية تحتاج إلى سماع من أهل ذلك اللسان . والفرق بين علم النحو وبين علم اللغة أن علم النحو موضوعه أمور كلية، وموضوع علم اللغة أشياء جزئية، وقد اشتركا معاً في الوضع[1] » — قيل لشارح التسهيل : إن القوم في الحضارة قد أحدثوا — محكمين مدققين — ألفاظاً ما عرفتها العربية السالفة . وإذا كان ذلك ولم ينكر فهل يُصدُّ (احتياج) أحدث لفظاً رأى إحداثه، أن يبدع — محتاطا — تركيباً ؟

وهنا هذا الحديث : إن اللغويين لم تحوّش كتبهم ألفاظ اللغة كلها ، وقد فر شيء كثير . فهل يستطيع الناحي أن يقول معتزاً : (علمُنا علمُ إحاطة) وقد استقرَت قواعدنا كل تركيب في كلام العرب ، وما فرّط (الكتاب[2]) من شيء

هل يستطيعنّ ... ! ؟ « يتبع »

(*) أنظر مقالتي عن بردى في الرسالة (عدد ٥٢)

(1) المزهر (2) يعني الكتاب لسيبويه

وتقابل البطلان بردى (الأسمر) القوى (سلطان الزبدانى) الغازى الفاتح، والفيجة (البيضاء) الفتانة (ملكة الوادى) واصطف الجيشان هذا من هنا؛ وهذا من هناك لا يختلطان[١]. ثم أقبلا فاصطرعا. فغلبت رجولة بردى وخضعت له الفيجة وسارت تحت ركابه ذليلة صاغرة، وهى أعز منه جنداً، وأسمى نسباً، وأكرم عنصراً

ومشى يجول فى الوادى ويصول، وعلا أرجاءه بنشيده الحماسى المرعد

لم يجاوز إلا قليلاً حتى قابل أميرة صغيرة تخطر على السفح الجميل، وفى (عينها الخضراء) صفاء وفيها وداعة ولها سحر، كأن الناظر إليها يشرب منها خمراً، تلق أغنيتها بصوت ناعم حالم. كأنه همس القلب فى أذن الطيف الحبيب. فأصغى إليها الجبل الأصم، ومال من الحنو عليها، وعانقتها الشمس. فلما اضطرت إلى فراقها احمر جفناها[٢] من كثرة البكاء. فذابت من حرارة الوجد قلوب (الثلج) وسالت مدامعها على خدود الجبال فاخضرت منها السفوح، فمن ذلك سميت (الخضراء). ثم لما عادت الشمس بسم الوادى، فمن ذلك سمى وادى (بسيمة)[٣] وكان لهذه الفتاة أم وصتها حين ألقتها فى لجة الحياة أن تحترس من النهر، وتحذر أن (يخطفها) ثم (يبتلعها) فإنه شاب غدار طياش ...

* * *

لما أحس بها بردى صرخ مختالاً: من هذا الذى جرؤ على أن يمشى معى فى الوادى، وينتزع منى مجدى، وتبسم له الشمس من دونى، وتحنو عليه وتسمع نشيده الصخور الصم ولا تميل علىّ ولا تصغى لنشيدى ؟...

فلما أبصرها شغفته حباً، ودلهته غراماً، فعمد إليها ليخطفها، فقامت دونها الصخور ووقفت تحميها (الدلبة)[٤] العظيمة التى تعيش هناك، وتلوح بأذرعها مهددة، فعجز عنها. وأنى له الوصول إليها وهى نائمة فى حضن الجبل ومملكته لا تتجاوز الوادى ... لحطم الحب كبرياءه، وما أجلّ ما يفعل الحبّ! فتطامن ومشى ذليلاً. فلما رأته فتنها بصمته، وحرّك قلبها بأحزانه فمالت إليه، وشغفت (ببريق) عينيه وقوته وشبابه، فنسيت وصاة أمها، وتمنّت لو نامت على ذراعيه. فلما جرّبت ذلك حملها وطار بها إلى دمشق

ومرّ على بردى نصف مليون من السنين، وهو السيد المطلق، يجرى حراً أبياً، لا يقف فى وجهه شىء، حتى يجوز بدمشق، ثم يذهب فيستريح فى (العُتيبَة)... ثم ظهر الإنسان على الأرض، وظهر بردى على الطبيعة، فويل له من الإنسان!

* * *

وفى ذات صباح جاءه طائر يلهث عطشاً. فلما سقاه أحب الطائر أن يجزيه خيراً، فخبره أنه رأى هناك فى الرمال المحرقة التى تملأ (الجنوب) أمة من الناس، يمشون فى طلب الماء. وقال له: إنى أخاف عليك منهم، فهم من أهل الجزيرة التى لا تغلب. من العرب. إنهم بنو الشمس، بنو الصحارى، بنو الموت، أفتظن أن الموت يمس أبناءه ؟

فضحك بردى وصرفه بسلام!

* * *

ووصل أول رجل من القافلة، وكان من أهل (الجزيرة). وهل خرج إلى الدنيا فى فجر الحياة غيرهم ؟ فلما رآه صاح بإخوته أن تعالوا انظروا كم يحمل من ماء الحياة ونحن هالكون عطشاً. فاقبضوا عليه كيلا يفلت من أيدينا. ضعوا له الحواجز فى طريقه كيلا يهرب ...

وأراد أن يضربهم ضربة واحدة فيهلكهم فلم يقدر عليهم. وقدروا هم عليه فأحس أن نجمه قد شرع فى الأفول ... عطلوه عن سيره، وغلبوه على أمره، ثم صنعوا معه صنع كل عدو غالب. فرّقوا جماعته، وجعلوا أمته الواحدة أمماً سبعاً، فبعد أن كان كله بردى صار بردى ويزيد وتورا وبانياس والقنوات والديرانى والقناة، ثوّروا عليه أبناءه حتى استقلوا عنه واعتصموا منه بأكناف الجبلين ... ثم سلبوه الفيجة واستاقوها (مقيدة بالحديد) إلى دمشق ...

ولقد غضب بردى مراراً وهاج، فكان يهجم على المنازل

---

(١) ذلك مشاهد إلى اليوم فى الفيجة

(٢) أعنى حمرة الشفق

(٣) من زار الشام ومصايفها ولم ير بسيمة والعين الخضراء فلا يقل إنى رأيت الشام لئلا يقول غير الحق

(٤) فى بسيمة عند العين واحدة من شجرة الدلب لا يدرى أحد متى ولدت. وقد أدركت فى الشام دلبة أعظم منها، كانت فى شارع فيصل، فى مدخل السروجية، أحسبها قد أدركت معاوية بن أبى سفيان وقد نخرها الكبر، فاتخذوا فى جوفها مخزنا. وأظن أن محيط جذعها كان أكثر من اثنى عشر مترا. وكان يستند إلى فرع منها جناح كبير من منزل كان هناك، وقد قطعها جمال باشا (عليه من الله ما يستحق) مثلما قطع أعناق البشر!

وساكنيها، فيشردهم شذر مذر، ولا يبقى منها حجراً على حجر، ويحسب أنه انتهى منهم ، فإذا هم يلدون غير من مات ، ويبنون غير ما انهدم ... فكل وأيس ... وأحس أنه صار شيخاً !

* * *

ووقفت على بردى وهو يمشي في (المرجة) رحبة دمشق تحت قصر أمية مشية الشيخ العاجز المتهافت ، فقلت له : هيه ... مالك ؟ تعبت ؟ أو قد شخت ؟

قال: دعني يا غلام ، فإني أساير الأيام، فلما كانت مقبلة جادة كنت أقبل معها عدواً ، فلما تولت وهزلت ... توليت ...

ومالي لا أني ، وقد باد مجدي ، وساء جدي ؟ ألا يا ليتني ما عرفت الإنسان !

وسكت لحظة ، ولاحت على خده دمعة تجري مع الماء ، ثم قال : على أني رأيت والله ناساً كراماً ... أجلوني وعرفوا قدري، وكنت أمر بين أيديهم من الرحيق السلسل ... وكنت أمشي في الرياض على فتيت المسك ، وأنام على غناء ، وأصبح على شعر ، وأضحى على كرم ومجد ونبل ... فأين أنت يا قصر البريص[1]

وأين أولئك الذين كانوا لباب البشرية ، وكانوا مثلها العليا مجسمة ، أولئك المسلمون الذين شادوا مجداً جدع أنف الدهر ؟ أين ذلك الرجل[2] الذي مر علي يوماً وكنت أمشي في الربوة على باب دمشق في الموضع الذي امتلأ هواؤه بجراثيم ذلك المرض الفظيع، فلا يمر به أحد إلا أصيب به، المرض الذي يسمونه الحب فلا يذهب إلى الربوة من كان يخاف الحب ، لأنه لا يرى هذا الجمال إلا تفتح له قلبه ، فذهب يفتش عمن يحب ... مر علي ذلك الرجل العظيم، فرأى الأغنياء لهم في الربوة قصور ومنازل، والفقراء ما لهم إلا حجارة الجبل وحصى الوادي ، فلم ينصرف حتى أقام لهم متنزهاً ما رأى الناس مثله ، يجري تحته (تورا) ، ويجري فوقه (يزيد) ، وهو بينهما جنة ، فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين . فإن اشتهوا تمراً مدوا إليه أيديهم ، وإن اشتهوا لحماً ناولتهم السمك حياً ، فنقلوه من الماء إلى المقلاة[3] ، وإن أرادوا لذة العين وجدوا ما لا مزيد عليه في دار الدنيا ، وعند الله في الآخرة مزيد ...

فأين أولئك الناس ، وأين اليوم أمثالهم ؟

وسكت بردى هنيهة ، ثم رجع يقول ...

لقد شاقتني أمس تلك القصور وهاتيك المنازل ، وقد سدوا إليها الوارد ، وأغلقوا الأبواب ، (فانسللت) من شقوق الأرض حتى بلغت قاعة في الدار العظيمة ، دار القوتلي ، التي ترى عرصاتها من (منارة العروس) إذا أنت صعدت إليها ، ونظرت إلى ما تحتك إلى الشمال ، وراء قبر الملك الظاهر ، ترى عرصاتها فتحسبها حياً كاملاً ، أو أطلال قرية كانت هناك ... دخلت القاعة فيا أسفى ، ماذا وجدت ...

لا الروض باق ولا أهلوه باقونا ... ذوى الزهر ، وجف الماء ، وصارت البرك حفراً قاحلة ، وقد كانت تضحك فيها أوانس الماء متراقصة ضحك الحياة في هذه الدار . . . وتعرت الجدران ، وقد كانت نقوشها ومقرنصاتها آية في مصحف الفن ...

اللهم إني أستغفرك — ولم يبق من ذلك (الصيني) الذي يملأ (الكتبيات) والرفوف إلا قطع غاصت في التراب فبدت منها أطرافها ، ولا من السجاد الثمين إلا خيوط الله أعلم كم بلتها الأمطار ، وكم جففتها الشمس ، حتى غدت وليس لها لون يعرف . والرخام الأبيض الذي كان كالمرايا ... والأشجار والأوراد ...

لقد انصرف الدمشقيون عن هذه الدور التي كانت مصدر الفن العمراني الأندلسي ، منها أخذ وعنها نقل ، وكرهوا هذه الجنان ، واتبعوا الأفرنج إلى (جحر الضب ... فآثروا عليها هذه الصناديق المغلقة التي يسمونها دوراً . فمن يفهمهم أنهم يخطئون ، وكيف السبيل إلى الاحتفاظ بالبقية الباقية من دور دمشق القديمة ، قبل أن تهدمها حماقة المالكين ، وفتنتهم بتقليد الغربيين ؟

ومتى يعلمون أن أوربة ليست أرقى منا في عادات ولا دين ، ولكنها أرقى في الصناعات . فياويح القردة المقلدين لقد ذهبوا يدرسون العربية ، حتى العربية لغتنا ، ذهبوا يدرسونها في باريز !

(قال) : ودخلت تلك البركة التي طالما شهدت فيها أعراس

(١) عندي شواهد على أن موضع قصر البريص في موقع (سوق النحاسين) اليوم — أمام المناخ من دمشق ، واسألوا مع ذلك أعلم أهل الشام بخطط الشام الشيخ دهمان العالم المختفي الذي لا يجد من أحد تشجيعا .

(٢) نور الدين .

(٣) وهذا مثل ما يعرف في بغداد باسم (السمك المسقوف) وما عرفه من لم يره ، ولا درى بجلاله من لم يحضرها ، لأنها فوق الوصف !

الحياة أتذكر ، فرآنى خادم هرد ، فصاح بابنه أن تعال أخرج هذا الماء الآسن من هنا ...

ماء آسن ؟ أنا آسن ؟ يا ويحكم . أما كنت طاهراً نقياً أسير فى الوادى كما خلقنى الله ؟ أما أكرمنى من كان قبلكم ، ورفعونى بالنوافير على الرؤوس ، وكانوا يتقون الله فىّ فلا يمسوننى بأذى؟ ويلكم أينا الآسن يا ذوى النفوس الآسنة ؟ كنت أصافح من أجدادكم عند الوضوء وجوهاً مشرقة نورانية وأيدياً طاهرة معطرة فصرت لا أرى منكم إلا السوء. دنستمونى وآذيتمونى؟ وألفيتم علىّ أوضاركم ، وتدّعون أنكم فى عهد النور ، وأن عهد أولئك كان عهد ظلام ...

أعهد ظلام كان، وقد سطع فيه من عندكم نور العلم حتى ملأ الدنيا ، وامتد فيه شعاع الفضيلة حتى أضاء غياهب القلوب فبدد ظلمة الشهوات ؟ ورفرفت فيه الراية — رايتكم على نصف المعمور من الأرض — ولو اجتزتم نهراً عرضه خمسون متراً ، ولو أخر الله موت عبد الرحمن ساعتين، لرفرفت على النصف الآخر، ولنجا العالم من وحشية الشُقْر الآريين الذين يدعون كذباً أنهم أفضل منكم. دعوى إبليس حين قال : (أنا خير منه) !

لقد هدمنا مجدنا بأيدينا ، وأعنّا عدونا على أنفسنا ، فذللنا حين انقسمنا ، وأضعنا كل شىء حين ذللنا . أفلا يقظة بعد هذا النوم ؟ ألا نظرة بعد هذا العمى ؟ ألا زعيم مصلح حقاً يرجع الناس إلى الجادة التى ضلوا عنها ، إلى كتاب الله وسنة نبيه ، ويخلصهم من بليتين : من إلحاد المتفرنجين ، ومن شعوذة أصحاب الطرق الحشويين الجاهلين ؟

اللهم تباركت ربنا ، لك الملك ولك الأمر ، ولا شكاة إلا إليك ولا خير إلا منك . اللهم ما شخت ولا أصابنى الونى ، ولكن أمرضتنى الأقذار التى ألقوها على ، وهذه البنى المتقنة التى أنشأوها على جوانبى : كعبات الشيطان : تريانون وأولمبيا والليدو وبناية الروكسى (السينما وما فوقها ...) !

وسكت بردى ، وعاد يمشى مشية الشيخ العاجز حزيناً متألماً !

هكذا تكلم الشيخ بردى ... !

« دمشق » علي الطنطاوي

الأدب الفنلنـــدى

للأستاذ صديق شيبوب

(بقية الحديث عن ملحمة كاليفالا)

طهرت الطبعة الأولى لملحمة « كاليفالا » يوم ٢٨ فبراير سنة ١٨٣٥ . ولعل النجاح الذى صادفه هذا الأثر الفنى شجع « لونرو » على متابعة رحلاته ، وكان قد عنى من قبل بجمع القصائد التى ينشدها سكان مقاطعة « كاريلى » ، فتوجه إلى المقاطعات الشرقية ونقل القصائد الشائعة فيها ، ثم ضمها إلى ما سبق له جمعه بحيث اكتملت هذه الملحمة وطبعت للمرة الثانية فى شكلها الجديد سنة ١٨٤٨ فى ثمانمائة واثنين وعشرين ألف بيت من الشعر وهى الطبعة التى يعتمد عليها اليوم . وقد نقلها إلى الفرنسية فى شعر مطلق مقطع وفقاً لتقاطيع الشعر الفنلندى المسيو جان لوى بيريه Jean Louis Perret الأستاذ المعيد للأدب الفرنسى بجامعة هلسنكى .

كان لظهور هذه الملحمة فضل بعث الروح القومية فى نفوس الفنلنديين . ويهمنا فى هذا البحث من أثرها أنها حملتهم على العناية بلغتهم الأصلية .

قلنا : إن الأسوجيين بعد أن فتحوا فنلندا فرضوا لغتهم على سكانها ، فصارت اللغة الأسوجية لغة العلم والأدب ، بينما ظلت اللغة الفنلندية شبه لهجة يتحدث بها الشعب . فظلت متأخرة لا سبيل إلى التعبير فيها عن حالات النفس ورغباتها . وظلت اللغة الأسوجية مسيطرة على اللغة الفنلندية ، حتى بعد استيلاء روسيا على دوقية فنلندا الكبيرة . وكانت تعلم فى مدارسها وجامعاتها .

ولما أخذ الفنلنديون يشعرون بقوميتهم بفضل ظهور ملحمة « كاليفالا » ابتدأ الشعب يناضل للتخلص من اللغة الأسوجية التى لا تزال الطبقة الأرستقراطية متمسكة بها إلى اليوم

فلا عجب إذا احتفى الفنلنديون بهذه الملحمة واحتفظوا بها كاحتفاظهم بمفاخرهم القومية وآثارهم الوطنية التى كشفت لهم عن كنوز ماضيهم الدفينة وأوحت إلى نفوسهم الثقة بمستقبلهم